

تيه^(*) النقد العربي المعاصر بين صلاحي^(**) المشرق والمغرب، محاولة للاهتمام على ضوء الخصومة.

د. لزهركرشو

جامعة الشهيد حمه لخضر – الوادي (الجزائر)

* تقديم:

لا نأتي بجديد عندما نكتب عن تيه النقد العربي المعاصر بين المنجز النقدي للغرب، والموروث الإبداعي والنقدي للعرب، ولا نلفت النظر إلى طريف حين نصّف الناقد العربي المعاصر بالممزج بين ثقافتين مختلفتين، تجمعهما حضارة واحدة، هي حضارة الإنسان، بيد أنّ تيه النقد العربي المعاصر الذي سنحاول إلقاء الضوء عليه في هذا البحث، هو ذلك التيهان المتصل بعدم استفادة النقد العربي المعاصر من ثراء مشرقه، ومن غنى مغربه، فبقي موسوماً بتهمتي الرجعية والتبعية، وكلا التهمتين ينزع به نحو مؤخرة القافلة الإبداعية والركب الحضاري، على الرغم من تمتعه بكوامن القوة في جناحيه المتشاكسين، وطرفيه المتكاملين (المشرق العربي/ المغرب العربي).

إنّ البحث في هذا الموضوع بحثٌ قديم متجدّد، وبادرةٌ تجددّه هذه المرّة مسجلاتٌ صحفيةٌ في شهر جوان من هذا العام (2016م)، أثارها ثلاثة مشاركةٍ ومغربيٍّ واحدٌ، غير أنّ بادرة هذا السّجال كانت بين صلاح⁽¹⁾ المشرق العربي ومغربه، والمقصود ب(صلاح) المشرق والمغرب، هما صلاح فضل الناقد والكاتب المصري المعروف⁽¹⁾، وصلاح بوسريف الشاعر والكاتب المغربي المعروف⁽²⁾ أيضاً، ومستهلّ هذه المسجلات النقدية بدأت بمقابلة صحفية أجراها الكاتب الصحفي محمد المحامصي في صحيفة (العرب)⁽³⁾ مع الناقد المصري صلاح فضل في شهر ماي 2016، بعنوان (الرواية تواصل الانفجار وأزمة الشعر والشعراء)، وقد كان صلاح المشرق في هذا اللقاء حاداً في تقييمه للناقدين والمبدعين المغاربة، الشيء الذي ولّد ردود فعل عاصفةٍ وشديدةٍ شهر جوان من السنة نفسها، بدأت برّد صلاح بسريف (الشاعر والأكاديمي المغربي) في صحيفة (القدس العربي) بتاريخ 10 جوان 2016، بوساطة مقال بعنوان (بصدّد ما قاله «الدكتور» صلاح فضل عن النّقد والإبداع المغاربة... الأعمى الذي يفقدُ المُبصر)⁽⁴⁾، وقد كان ردّه أكثر عنفاً في حقّ صلاح فضل والناقدين المشاركة وأكادهمهم عموماً، وبعد أيام من نشر مقال صلاح المغرب، كتب الكاتب السعودي محمد العباس مقالاً في (صحيفة القدس) العربي بتاريخ 14 جوان 2016 بعنوان (العقل النقدي المغربي ... الامتيازات إذ تتحول إلى اتهامات ... هل هناك إعادة لتدوير وإنتاج صراع المشاركة والمغاربة؟)⁽⁵⁾، وقد أعاد محمد العباس في هذا المقال الأمور إلى نصابها إنصافاً للمغاربة في النقد والإبداع، وعدلاً في حق المشاركة، من جهة أنّهم ليسوا صوتاً واحداً فيما وصف به صلاح فضل المغاربة، وبالمحصلة أخرج هذا المقال الطابع الشخصي من المقابلة والرّد عليها إلى الطابع الموضوعي، والمتمثل في صراع المشاركة مع المغاربة. لم يتوقف هذا الأمر عند هذا الحد بل تعدّاه إلى ردّ ثالثٍ كان أكثر تهجّماً وحدةً، وقد كان هذا المقال من قِبل كاتبٍ عراقيٍّ مقيمٍ بسلطنة عمان، اسمه وليد محمود الخالص، كتب مقالاً في صحيفة (أثير) الالكترونية الصادرة عن سلطنة عمان، بعنوان (حين يغمس المثقف قلمه في الخل)⁽⁶⁾، والمقصود بهذا المثقف هو صلاح بوسريف، وقد كان هذا المقال مناصراً لصلاح فضل وناقداً لصلاح بوسريف نقداً لاذعاً.

(*) التيه هنا من التوهان بمعنى: الهلاك وقيل الذهاب، وليس من التيهان الذي هو بمعنى: الصلف والتكبر (ينظر: لسان العرب،

مادة

(توه)، ومادة (تيه))

(**) المقصود بصلاح المشرق صلاح فضل، والمقصود بصلاح المغرب صلاح بوسريف.

بعد أن عرضت عناوين المقالات المعنية بالمساجلات التي أُخِيتْ صراعًا قديمًا يتجدد، يجب في البداية أن نحدّد الغاية من عرضها، وتحليلها، وهي الغاية التي يجب أن تكون نبيلةً بانيةً بعيدةً عن الهوى والتعصّب الجهوي أو القطري، إذ لم أكن أهدف من وراء هذا البحث إلى مناصرة مغربيٍّ أو مشرقيٍّ، ولم أكن أسعى إلى توسيع دائرة الفتنة بين بني الأمة الواحدة، ولم تأخذني همامةٌ نفسيّ بمناصرة مغربيٍّ واحدٍ مقابل ثلاثةٍ مشارقيٍّ، لا بل إني وجدتُ في الأمر عافيةً وأملًا عريضًا في النهوض بأمر النقد العربي والإبداع العربي من خلاله، خاصة وأنّ مشرقيًّا من بين الثلاثة (وهو محمد العباس السعودي) كان منافحًا صلبًا للمغربيّ الوحيد، ولم يكن متعصبا لمشرقيّته كما فعل الكاتب (وليد محمود الخالص)، وعليه سأحاول إبراز المسائل التي عرض لها المتساجلون، من جهة كشف أدواء المشرق العربي وأدواء المغرب العربي بوصفها أدواءً للنقد العربي والإبداع العربي بعامّة، وسأحاول معرفة خلفية هذه الهنات ومسبباتها المعرفية والفنية، كما سأجهد في اقتراح ما يمكن وصفه حلاً وفق ما أهتدي إليه من محصلة الاتهامات والردود التي وردت في تلك المسجلات، ومن متابعة كرونولوجيا الدراسات المتصلة بالنقد العربي المعاصر في حدود اطلاعي المتواضع.

سأقوم بتقديم نقاط بحثي وفق أهمّ الانتقادات الموجهة من الطرفين، وحسب ما يمكن أن يكون مواطن الخلل التي تصيب واقع النقد والإبداع العربيين في زمنه المعاصر، كما يتصورها المتساجلون، أو ما يمكن أن يكون موطن خللٍ موهومٍ ولا علاقةً له بالواقع النقدي والإبداعي لهذه الجهة أو تلك. وعليه سنقوم بالتركيز على نقطتين مهمتين انطلاقاً من هدي الخصومة المساجلتية، وهما: النقد الموجّه للنقاد والمبدعين المغاربة من قبل بعض المشارقة، والنقد الموجّه للنقد والمبدعين المشارقة من قبل بعض المغاربة، وغايتنا من هذا التقسيم حصر أهمّ العلل التي تعيق التطور النقدي والتألق الإبداعي للعالم العربي عموماً، والجسر الموصل إلى هذه الغاية النبيلة التحليل العلمي، والموضوعية المبصرة، عوض الاتهامات الفضفاضة، والشخصانية المتعصبة.

أولاً. النقد الموجّه للنقاد والمبدعين المغاربة:

أول فقرّة أشعلت فتيل المساجلات كانت **لصلاح فضل**، في سياق تحليله للواقع النقدي العربي، وهي الفقرّة التي خصّ الكلام فيها عن الواقع النقدي والإبداعي للمغاربة، وذلك في قوله: « أعرف وأنا على علاقة صداقة حميمة ببعض النقاد المغاربة والتونسيين والجزائريين، أن بعضهم مولع بالغموض الشديد جداً فأبسط المناهج اليسيرة الجميلة تتحول في قلمه إلى لوغاريتم يصعب فك لغزه، وبعضهم الآخر ليست لديه قدرة كبيرة على الاستيعاب النظري والتطبيق العملي، وهم يفتقدون في المغرب العربي عموماً. وهذا نقد لهم. لرصد الظاهرة وفقاً لبصيرة نقدية تطبيقية، أما المبدعون منهم فيحتاجون إلى مثقفين مشارقة لكي يضيئوا أعمالهم، لأنهم قد يملكون زمام الأفكار الكبرى لكنهم لا يعرفون. في مجملهم. كيفية تبينتها ولا تطبيقها على الواقع الإبداعي»⁽⁷⁾، ما يمكن استنتاجه من هذه الفقرّة هو محاولة من الناقد **صلاح فضل** رصد مواطن الضعف في النقد والإبداع المغاربة حسب منظوره، ولقد لخصّ تلك المواطن في نقطتين: **الغموض** في كتابات النقاد المغاربة، و**حاجة المبدعين المغاربة إلى الإضاءة النقدية المشرقية**، وسأحاول التفصيل في هذين النقطتين اللتين صدرتا عن ناقد مشرقي من جهتين؛ من جهة الردود عن هاتين النقطتين من قبل المغاربة **صلاح أبو سريّف**، والمشرقي **محمد العباس**، ومن جهة البحث عن أصل هاتين النقطتين من الجانب المعرفي، والجانب الإجرائي التطبيقي على واقع النقد والإبداع المغاربة. كما سأجهد في عدم الانجرار إلى مغالبة طرف على آخر، ولا تقصّد التشهير بأي طرفٍ كان، وإنما سأجعل هدفي الاستعانة بالخصومة لبيان مواطن الضعف والقصور في الساحة النقدية العربية من جهة، وكي تكون محفزاً لترقية العملية الإبداعية وتطويرها من جهة أخرى.

أ. الغموض:

يجب في البداية التفريق بين الغموض والتغميض، فالغموض هو الشيء المهم الذي لم تتوفر مفاتيحُ مغاليقه لدى المتلقي، أما التغميض فهو العمد إلى الإيهام لغرض من الأغراض المختلفة، والعبارة التي وظّفها **صلاح فضل** في توصيفه لبعض كتابات النقاد المغاربة تعني التغميض وليس الغموض، جاعلاً محملاً هذا التغميض الولع الشديد جداً بالإيهام والغموض، وذلك بشاهد قوله: «... أن بعضهم مولع بالغموض الشديد جداً فأبسط المناهج اليسيرة الجميلة تتحول في قلمه إلى لوغاريتم يصعب فك لغزه»⁽⁸⁾، أمّا بعضهم الآخر فوصف كتاباتهم بالغموض لا التغميض، جاعلاً محملاً هذا الغموض عدمَ قدرة المغاربة على الاستيعاب النظري والتطبيق العملي، وذلك بشاهد قوله: «... وبعضهم الآخر ليست لديه قدرة كبيرة على الاستيعاب النظري والتطبيق العملي، وهم يفتقدون في المغرب العربي عموماً. وهذا نقد لهم. لرصد الظاهرة وفقاً لبصيرة نقدية تطبيقية»⁽⁹⁾.

إذاً فالكتابات النقدية المغربية – حسب **صلاح فضل** - متهمّة بالتغميض بدافع الولع الشديد بالإيهام، وبالغموض بدافع عدمِ قدرة المغاربة على الاستيعاب النظري والتطبيق العملي، ولكن هل هذا الحكم صحيح؟ وإلى أي حدّ يمكن تقييسه وضبطه إذا كان صحيحاً؟ للإجابة عن هذين التساؤلين يجدر بنا أن نقف عند الردود التي أعقبت هذا التوصيف، وأنسب ردّاً على هذه النقطة كان من كاتبٍ يتقاسم مع **صلاح فضل** الجغرافيا المشرقية للعالم العربي، ألا وهو الكاتب السعودي **محمد العباس**؛ حيث ينفي صفتي التغميض والغموض، ويصف الكتابات النقدية المغربية باللغة النقدية المحقونة بالأفكار والمفاهيم والاشتغالات المتمردة، كما يعدّها بالمدرسة الواسعة والعميقة ذات الاتجاهات المتعددة، والانشغالات المتنوعة، وذات البصمة الأسلوبية التي تميزها عن مدارس أخرى، بل إن **محمد العباس** يردّ على متّهم الكتابة النقدية المغربية بالغموض بأوصاف اللافهم والاستيعاب للخطاب النقدي المغربي، ويؤكد أن الكتابة المغربية بصفتها الحالية هي كتابة امتياز لا نقيصة فيها، ويتجلى كلّ ذلك من خلال قوله: «النقد المغربي مدرسة واسعة وعميقة الأثر، وهي متعددة الاتجاهات، متنوعة الاشتغالات، وقد تتلمذنا عليها ولم نصادف ذلك الغموض أو الإيهام الذي تهم به، بل أتاحت لنا لغة نقدية محقونة بالأفكار والمفاهيم والاشتغالات المتمردة، وهي بمثابة بصمة أسلوبية تميزها عن مدارس أخرى، حيث يمكن النظر إلى هذا النوع من اللافهم والاستيعاب للخطاب النقدي المغربي كامتياز له وليس نقيصة»⁽¹⁰⁾، والكاتب **محمد العباس** في نفه للغموض المتصل بالكتابات المغربية ينطلق من تجربة التلمذ عليها، لا من تنظير التعليق عليها من بعيد، غير أنّ الكاتب العراقي **وليد محمود الخالص** تعقّب رأي **محمد العباس** هذا، بالحكم عليه بالتعميم غير المتّصف بالمنهجية والحذر والرؤية، وفي ذلك يقول: «أما الغموض، والإيهام اللذان يفهمهما عنها، فهذا إطلاق آخر، غير مستحبّ في الدراسة المنهجية، نراه قد استخدمه، وهو محتاج إلى حذر، وتروّ»⁽¹¹⁾، والموضوعية تقتضي عدم نفي الغموض عن الكتابات النقدية المغربية نفياً مطلقاً، بيد أنّ مقال **وليد محمود الخالص** يفتقد إلى المنهجية والحذر والرؤية في ردّة فعله الحادة على مقال **صلاح بوسريف**، حتى أنّه حوّل النورانية النقدية التي وصف بها **صلاح بوسريف** المغاربة إلى ضفة الكتابات المشرقية، في ردّة فعلٍ تعصّبية تبحث عن المغالبة أكثر منها بحثاً عن أسباب تطوّر النقد العربي بعامة، وهي عصبيّة لا نبرئ منها المغربيّ المغربيّ **صلاح بوسريف**، بل إنني من خلال تتبّعي لمقالات هؤلاء الكتاب وجدت **محمد العباس** أكثرهم موضوعيةً وأبعدهم عن التعصّب والجهوية.

أمّا عن **صلاح بوسريف** (المغربي) فلم أشأ أن أبداً برّدّه أولاً؛ لأنّ ردّه كان متعصباً ذا طابع تهجمي على المشاركة عموماً وعلى **صلاح فضل** على وجه الخصوص، مثله في ذلك مثل **وليد محمود الخالص** في لغته المتعصبة لكلّ ما هو مشرقي، ويمكن تلخيص ردّ **صلاح بوسريف** على نقطة الغموض هذه، في المفارقة المعرفية الحاصلة بين المشرق العربي ومغرب؛ من حيث تطوّر المنجز المعرفي المغربي من خلال ما عرفته كتاباته النقدية من مواكبة جديد النظريات النقدية الغربية من خلال الترجمة، وهو التطوّر الذي تجاوز من خلاله المغاربة مدارك المشاركة، وتعدّى حدود قدرتهم على فهمها؛ كون المشاركة – حسب **صلاح بوسريف** - تقليديين رجعيين توقّف بهم قطار المعرفة في محطات بعيدة، حالت دون استطاعتهم التواصل مع الدرس المغربي، وفي ذلك يقول: «... مثلما يحدث اليوم عند كثيرين من دكاترة المشرق، ممّن فاتهم قطار المعرفة، أو هم، بالأحرى، ما زالوا لم يخرجوا من كهف أفلاطون ليُدركوا الفرق بين الواقع، وبين تلك الظلال التي تأكل أبصارهم وتُعشّها، أو

تُصَيِّبُهَا بِالْذُّوَارِ، وَلَجَلَجَةِ اللِّسَانِ»⁽¹²⁾، لعل هذا التفسير يكون غير موافق تماما للحقيقة؛ كونها تعميمًا، والتعميم هو تضليل متعمد للحقائق، فالحكم على جميع المشاركة بالرجعية والبعد عن ركب الحضارة حكم يجافي الصواب في عمومته، وإن كان يصدق على غالبية، بيد أن شهادة **صلاح فضل** ببُعد المشاركة - وقد خزلهم في المصيرين وحدهم - عن الركب الحضاري لجديد النظريات المعرفية في مجال النقد والفكر عموما، تؤيد ما ذهب إليه **صلاح بوسريف**، حيث يقول واصفا الحالة المعرفية للمشرق - ويخص مصر بالتحديد -: «... لدينا في تقديري أزمة حقيقية سببها الجامعات المصرية التي توقفت حركة الابتعاث فيها إلى المراكز العلمية الغربية منذ ما يربو على نصف قرن - منذ ستينات القرن الماضي - حيث توقفت البعثات، والناقد الحقيقي لا بد أن يمتلك لغة أجنبية واحدة على الأقل، وجسرا متوصلا مع اللغات الأجنبية، فالاعتماد على الترجمة لا يشكل عقلا نقديا ...»⁽¹³⁾، وهذا الإقرار بوجود أزمة حقيقية في التواصل المشرقي مع جديد النظريات الغربية، يقابله بإقرار آخر يشهد فيه بتجاوز المغاربة للمشاركة في هذا الشأن؛ ودليل شهادته للمغاربة ما نقله محاوره محمد المحامصي في قوله: «يوضح فضل أن باب المغامرة الذي سدَّ في وجه النقد العربي المعاصر في مصر والمشرق، سنجد أنه مازال مفتوحا نسبيا في وجه المغاربة . المغرب والجزائر وتونس . لأن علاقتهم اليومية وترددتهم على فرنسا وألمانيا والدول الأوروبية الأخرى يسمح لهم بالاطلاع أكثر على المنجزات النقدية، لكنهم، في رأيه، يفتقدون شيئا أساسيا وهو التجذر في صلب نسيج الفكر العربي واللغة الحدائية المتطورة فيه...»⁽¹⁴⁾، و**صلاح فضل** في شهادته بفضل السبق للمغاربة على المشاركة في التواصل مع الغرب ، ما ينفك يطعن في هذا المنجز المغربي بهم تحتاج إلى تحليل وتمحيص، سأتطرق إليها في مضامنها.

هذا عن رأي **صلاح فضل** في نقطة الغموض، ومعرض الردود التي تلاحقت بعده، ولكن هل ثمة - فعلا - غموض أو تغميض في الكتابات النقدية المغربية؟، أو هل استوفى **صلاح فضل** جميع الحجج المثبتة لوجود الغموض من جهة؟، ومن جهة أخرى هل استوفى الرادون على **صلاح فضل** جميع الحجج المبطللة للغموض؟، ينبغي أن نقر في الإجابة عن هذه التساؤلات بأن الكتابات النقدية المغربية اتسمت بالانفتاح على الحداثة وما بعد الحداثة التي عرفتها الساحة الغربية، وهو الانفتاح الذي وصفه **صلاح فضل بالنسي**، وينبغي أن نقر أيضا أن سمة الغموض هي سمة حداثة بامتياز، وأنا في هذا الموضع لست في موضع التبرير للغموض، ولكنني في موضع أحاول أن أضع الأمور في نصابها، فإذا كان الغرب مهد الحداثة وما بعدها اعترف كاتبوه بطابع الغموض الذي يكتسي كتابات التفكيكيين وما قبلهم (البنويين)، فلا نقيم الدنيا ونقعدها على من انفتح عليهم، وترجم لهم، وخاض فيما هم فيه خائضون، بل إن الأمر وصل بالتفكيكيين مثلا أن حملوا عقيرتهم على مَنْ شَرَدَ منهم أو من غيرهم، إذا سؤلت لأحدٍ منهم نفسه الكتابة من غير غموض أو تغميض، وحجة ذلك قول عبد العزيز حمودة: «... فالإتهام الذي أسوقه للبنويين والتفكيكيين العرب إتهام مطروح على الساحة النقدية في الخارج منذ سنوات طويلة. ومن الطريف هنا ذكر حالة كَأَنموذج لذلك. وهي حالة الناقد الأمريكي (جوناثان كوللر Jonathan Culler) الذي يعتبر من ألمع نقاد التفكيك في السنوات الأخيرة. والذي سبَّب له تحليله الذكي للتفكيك بأسلوب يبتعد عن المبالغات بل ادعاءات جمهرة التفكيكيين، وتقديمه لأفكار المشروع النقدي المعاصر في لغة تبتعد بصورة واضحة عن الغموض المتعمد للغة التفكيك، والمراوغة المقصودة في تقديم الجدل النقدي الحديث، سبَّب له ذلك سخط التفكيكيين، بل واحتقارهم الواضح أحيانا، لأنَّ الرجل بذلك كشف أنه، كما نقول في حياتنا اليومية (ليس تحت القبة شيخ) ... لقد كشف (كللر) اللعبة فاستحق سُخط أقرانه من نقَّاد التفكيك»⁽¹⁵⁾، أما مَنْ كان من غير التفكيكيين فالهجوم الذي يطاله أشد، ولا أدل على ذلك من قول عبد العزيز حمودة: «وإذا كان التفكيكيون قد أثاروا كلَّ هذا الصخب حينما حاول واحد منهم تبسيط الأمور بعض الشيء، وتقديم النظرية مستخدما معايير المنطق التقليدي الذي يرفضه غلاة التفكيكيين، فلنا أن نتخيل ما يمكن أن يثيروه من صخب إذا تجرَّأ ناقد ينتهي إلى مدرسة مختلفة مهما علا قدره على محاولة لعبة التفكيك ...»⁽¹⁶⁾. هذا عن الأصل الذي يتعامل معه الكتابُ المغربي؛ فما بالك بالنسخة العربية المأخوذة عنهم؟، وعليه فالغموض في حال وجوده في الكتابات النقدية المغربية فهو لا ينفك أن يكون نقلا عن الأصل الغربي الذي يتقصَّد الغموض في كتاباته، وإن كانت هذه الحجة ليست دليلا كافيا لتقصُّد التغميض، ولكنه تبرير في حال الوجود، ومما يزيد في تبرير الغموض في الكتابات المغربية أن المشاركة أنفُسهم متبرِّمون منه في الكتابات المشرقية عند بعضهم، ولا أدل على ذلك من تذمر عبد العزيز حمودة من غموض

الكتابات الحداثية للمشاركة، ومن ذلك شكواه من الغموض الذي تلبّسه عند قراءته لكتاب كمال أبو ديب (الرؤى المقنعة: نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي)، فنجدته يقول معلقاً على لغة الكتاب وأسلوبه: «... ولكنني، والحق يقال، توقفت كثيراً عند لوغارتوماته كلها، عند دوائره ومثلثاته، خطوطه المتقاطعة والمتوازية والمنحرفة، وزواياه الحادة والمنفرجة. دون أن أفهم شيئاً، مرة أخرى، مع كثير من الانبهار، وقليل من الشك في مستوى ذكائي الفطري والمكتسب، وأنجيت باللائمة - للمرة الألف في تعاملتي المبكر مع البنيويين العرب- على نفسي، فالقصور لا بد قصوري أنا، ولا بد أن إنارة النص ... قد تمت بالفعل، لكنني غير قادر على إِبصار تلك الإنارة، فربما يكون بريقها معمياً، نفس الموقف وقفته مع لوغارتومات هدى وصفي عند محاولتي فهمها في مجلة فصول»⁽¹⁷⁾، هذا النص يثبت بما لا يدع للشك مجالاً أنّ الغموض أو اللوغارتومات - على حد وصف صلاح فضل - ليست خصيصة مغربية، بل إنّ حداثي المشاركة يوظفونه توظيفاً شكاً منه المتخصصون في مجال الدراسات النقدية منهم، وعليه فلو ثبت الغموض في كتابات المغاربة فإنهم - بذلك - لم يكونوا بدعاً فيه؛ إذ إنّ أخوتهم المشاركة ثابتٌ في كتاباتهم النقدية الحداثيّة - كما رأينا شهادة عبد العزيز حمودة - بما خصّ به صلاح فضل المغاربة وحدهم، فضلاً عن أنّ الكتاب الذين وُصفت كتاباتهم بصفة الغموض هم الكتاب المتفتحون على الثقافة الحداثيّة الغربية، وصفة الغموض هذه أصيلة في الثقافة الغربية - كما رأينا -.

النتيجة التي يمكنني أن أهتدي إليها على ضوء هذه الخصومة، أنّ الغموض سمة أصيلة في الكتابات النقدية الحداثيّة للتابع (الحداثيين العرب) والمتبوع (الحداثيين الغرب)، وأنّ الغموض الذي لمسه صلاح فضل في الكتابات النقدية المغربية مرده إلى عدم إحاطته بتطوّر المنجز المغربي المعاصر في المجال النقدي؛ لذلك وجدنا محمد العباس ينفي صفة الغموض عن الكتابات المغربية من جهة أنّه تتلمذ على المدرسة المغربية - كما رأينا -، وعرف نواميس عملها، ومنحوت مصطلحاتها، وأسرار ترجمتها، ولعلّ هذا البُعد (بُعد صلاح فضل عن متابعة المنجز المعرفي المغربي عموماً والنقدي على وجه التحديد) يُيسّر لنا تفهّم صلاح بوسريف عندما يتهم صلاح فضل بعدم قدرته تتبّع الحركة النقدية للمغاربة، إلّا أنّه يجب التمييز بين الغموض والتغميض، ويجب أن نتفهّم طبيعة جبرية الغموض في بعض المواضيع وبعض المواضيع، إلّا أنّه يجب ألاّ يُتوسّل بالغموض إلى التغميض؛ إذ لا مبرّر للتغميض سوى إبعاد جهة التلقّي، وإغفال دور القارئ عمداً وتقصّداً، والمعروف أنّ القارئ هو الطرف الأصيل في النص، فلا ينبغي اعتماد التعمية والتغميض معه، وفي إبراز دور القارئ في صناعة النص تقول حكمت صباغ الخطيب: «نحن -القراء- طرفٌ في علاقة طرفها الآخر النص. نحن نبذل النصوص حين نقرأها، ونحن بالقراءة نقيم حياة النصوص أو نشهد على موتها، أن نمارس النقد معناه أن نشارك في دورة الحياة لثقافتنا، نتج حياة هذه الثقافة لتنتج بدورها حياتنا الأفضل»⁽¹⁸⁾، وعليه فالتغميض يقف حائلاً في تواصل النص مع قارئه، وهو مرفوض سواء أكان مغربياً أم مشرقياً.

ب. حاجة المغاربة إلى الإضاءة المشرقية:

افتقار المبدعين المغاربة إلى الإضاءة النقدية للمشاركة هي النقطة الثانية التي سجلها صلاح فضل على المنجز الإبداعي المغربي، من خلال قوله: «... أما المبدعون منهم فيحتاجون إلى مثقفين مشاركة لكي يضيئوا أعمالهم، لأنهم قد يملكون زمام الأفكار الكبرى لكنهم لا يعرفون. في مجملهم. كيفية تبينها ولا تطبيقها على الواقع الإبداعي»⁽¹⁹⁾، في الحقيقة إنّ الحاجة إلى الإضاءة المعرفية حاجة مطلقة ودائمة لا تحدّها الجغرافيا، ولا التاريخ، ولا حتى اختلاف الثقافات، وعليه فالمبدعون المغاربة بحاجة إلى إضاءات نقدية مشرقية، كما أنّ المبدعين المشاركة بحاجة إلى إضاءات نقدية مغربية، ومجرد قصر الحاجة على المشاركة نظرةً متطرفة لا تمت بصلة إلى البصيرة الواعية بالمعرفة الإنسانية، ولا تولّد إلّا تطرفاً مضاداً، تماماً مثلما كان ردّ صلاح بوسريف على صلاح فضل؛ إذ يقول: «... لا نحتاجُ لنقدِ المشرق، ولا لترجماتِهِ، ولا حتّى لِفكرِهِ، إذا كان هذا الفكرُ، وهذه التّرجمةُ، وهذا النّقدُ، ادّعاءً، وضّحالهً في النّظر، أو بصيرةً، فيها من الغشاوة ما يكفي ليُجعل من الأعشى يدعي قيادة المُبصر»⁽²⁰⁾، إنّ هذا الردّ فيه من التطرّف ما يحمل المغاربة إلى التبرئ منه، فليس من المنطق ولا من الواقع المعرفي أن نزعّم أننا أغنياء عن المشرق، ولا أن يزعم المشاركة استغناءهم عن المغاربة، في حين يُثبت المنجز المعرفي العربي أنّه غريقُ الحاجة

إلى المنجز الغربي الذي يختلف عنه في الثقافة كجوهر، فضلاً عن الأشكال التعبيرية المختلفة لتلك الثقافة، وقد صدق **وليد محمود الخالص** في إثباته لجبرية الحاجة المعرفية لكل مشتغل بها، ولا سيما أنها أصبحت في المتناول بفضل تطور وسائل التواصل الحديثة، وقد أورد هذا الإثبات في الرد على **صلاح بوسريف**، وفي ذلك يقول: «أقول: هل بوسع أيّ (مثقّف) اليوم أن يتحدث عن الحاجة، من عدمها، ونحن في ظلّ هذا الفضاء المفتوح من وسائل الاتصال المتشابكة التي تأخذ بالعقول، والعيون، والأذان، بل بالأنفاس؟ ولذلك يصبح منع كتاب، أو صحيفة من دخول بلد ما مثلاً، أشبه بالمهزلة، أو بـ(فكاهة) سمجة، ثقيلة. فكيف نمنع؟ وما سلطة هذا المنع؟ وقد زالت الحدود، واقتربت المسافات، ودنت السماء من الأرض، ومن هنا فإنّ (الإعلان) عن نفي الحاجة، هو رغبة شخصية بحثة من **بو سريف** نفسه، تخصّه وحده، من المحال إعدامها، لا على المغرب وحده، بل على المشرق أيضاً في ظلّ واقعنا الذي نعيشه»⁽²¹⁾.

إلا أنّ الردّ الأمثل على **صلاح فضل** كان من **محمد العباس**، الذي أرجع هذه النظرة الاستلحاقية (إلحاق المغاربة بالمشاركة) إلى جهل **صلاح فضل** المطبق بالمدرسة المغربية ومنجزها النقدي والإبداعي، وفي ذلك يقول: «... إذ يبدو أنه - أي **صلاح فضل** - بحاجة إلى تثقيف بمديات ودوائر اشتغال النقاد المغاربة، وهي مهمة ثقافية عسيرة، ولكنها ضرورية، ليس لمن أطلق سيل الاتهامات لطرف ثقافي فاعل فقط، بل للثقافة العربية، حيث يبدو أنّ المثقف العربي يجعل ما يؤديه مجاليه وأقرانه في مختلف أنحاء العالم العربي، ليس على مستوى القراء وحسب، بل على مستوى النخب»⁽²²⁾، بل وصل الأمر بـ**محمد العباس** إلى وصف هذا الاستلحاق بالاتهام الخطير، وبوجوب مساءلة قائلها، وذلك من خلال قوله: «اتهامات **صلاح فضل** خطيرة جداً، فهو لا يكتفي بإبطال مفعول النقد التنظيري المقبل من المغرب وتونس والجزائر وحسب، بل ينفي وجود أي مرادفات تطبيقية مقنعة، أو تشكّل أي مردود معرفي قابل للتداول، وذلك بسبب رداءة الاستقبال الأكاديمي للمناهج والنظريات الغربية، وعدم قدرة ذلك الطابور من النقاد على استيعابها وتحويلها إلى أدوات صالحة وفاعلة في مقارنة النصوص، والأدهى أنه يولي مهمة تطويب النصوص وافتكاكها إلى المشاركة، وكل ذلك من خلال تصريحات عابرة وبدون أي تدليل، وهذا هو طابع اللقاءات الصحافية المستعجلة النيئة، إلا أنّ اتهاماتٍ على هذه الدرجة من الجرأة تحتاج إلى مساءلة قائلها، في الوقت الذي تتطلب فيه حضوراً نقدياً مضاداً للذين جردوا من معرفتهم وذائقتهم ومنهجيتهم»⁽²³⁾، والدليل على جهل **صلاح فضل** بالمنجز المغربي كان قد نصّ عليه قبل ذلك **صلاح بوسريف** في قوله: «...لأنّ صاحبه [يقصد **صلاح فضل**] لا يَعْرِفُ شَيْئاً، لا عَنِ النَّقْدِ الْمَغَارِبِيِّ، ولا عَنِ الْإِبْدَاعِ، في هذه الجغرافية العربية الْمُتَفَتِّحَةِ على الثَّقَافَاتِ والمعارف، بذون عَقْدٍ، أو ادِّعاء. فقراءاته، هي تفاريق، وتقاطيع، لا صِلَة لها بما حَدَثَ من انتقالاتٍ كُبْرَى، في الفكر، والنقد، والإبداع، وأيضاً في الفن، في المشهد الثقافي المغربي»⁽²⁴⁾.

والشيء الذي يثبت بطلان هذا الزعم الاستلحاقى أنّ **صلاح فضل** نفسه شهد في أول مقابله الصحفية بتعطّل الآلة المشريقية في التواصل مع الجديد النقدي الغربي، وبانفتاح المغاربة على هذا الجديد، وهي الشهادة التي من المفروض أن تعبّر عن حاجة المشاركة إلى المغاربة لا العكس، ودليل ذلك قوله: «لدينا في تقديري أزمة حقيقية سببها الجامعات المصرية التي توقفت حركة الابتعاث فيها إلى المراكز العلمية الغربية منذ ما يربو على نصف قرن - منذ ستينات القرن الماضي - حيث توقفت البعثات ... [أما شهادته عن المغاربة فكانت في قوله:] سنجد أنه مازال مفتوحاً نسبياً في وجه المغاربة. المغرب والجزائر وتونس. لأنّ علاقتهم اليومية وترددهم على فرنسا وألمانيا والدول الأوروبية الأخرى يسمح لهم بالاطلاع أكثر على المنجزات النقدية»⁽²⁵⁾.

ومن دلائل استقلالية المدرسة المغربية، وتطور منجزها المعرفي الذي يجعل منها مدرسة يُتعلّم منها، ويُعامل معها تعاملاً علمياً راقياً؛ بحيث يؤخذ عنها ويُستفاد، شهادات المشاركة أنفسهم بقدرها وفضلها، ومن ذلك شهادة **محمد العباس** في قوله: «المغاربة أساتذة في النقد تنظيراً وتطبيقاً، وما أنجزوه من دراسات وترجمات ومقاربات صارت مرجعياتٍ مهمّة لكل باحث، بل أنّ بعض تلك الاشتغالات النقدية الاستثنائية أصبحت هي المرجعية الوحيدة التي لا تتوفّر إلا في العقل النقدي المغربي، فلكل ناقد مغربي مشروعه الصريح على مستوى الترجمات والدراسات والمقاربات، ولا يمكن لأي متابع أو مهتم إلا أن يرتطم بتلك الجهود اللافتة، كما لا يمكن لأي باحث أو قارئ ألا أن يعبر عن مديونيته للنقاد المغاربة، حيث تشكل المكتبة النقدية

المغربية زاداً معرفياً لا غنى عنه للإنسان العربي، وفي بعض الحقول يتفوق المغاربة على المشاركة إلى درجة احتكار حقول نقدية بعينها، بدون أن تكون فكرة المفاضلة حاضرة في وعي العاملين في هذه الدائرة»⁽²⁶⁾، ويواصل محمد العباس شهادته للمدرسة المغربية بقوله: «النقد المغربي مدرسة واسعة وعميقة الأثر، وهي متعددة الاتجاهات، متنوعة الاشتغالات، وقد تتلمذنا عليها ولم نصادف ذلك الغموض أو الإبهام الذي تُهم به، بل أتاحت لنا لغة نقدية محقونة بالأفكار والمفاهيم والاشتغالات المتمردة، وهي بمثابة بصمة أسلوبية تميزها عن مدارس أخرى»⁽²⁷⁾، ولا نكتفي بهذه الشهادة فقط بل نمضي إلى أبعد منها، وهي اعتراف وليد محمود الخالص بالمدرسة المغربية ومنجزها المعرفي، وهو الذي تجرّد للهجوم على صلاح بوسريف ومناصرة صلاح فضل، من خلال قوله: «للمغرب تراثه، وثقافته، وشخصيته الاعتبارية التي تنأى به عن أن يكون تابعاً لأحد»⁽²⁸⁾، ونجده كذلك يعترف بفضل المغربية في سياق ردّه على محمد العباس، في قوله: «ولا نختلف معه في تقويمه للمدرسة المغربية في النقد، وأهميتها»⁽²⁹⁾. هذه الاعترافات لا تُنقص من قدر المدرسة المشرقية شيئاً، بل تضيف لها شريكاً فعّالاً في إقامة مدرسة عربية نقدية جامعة لمختلف الطاقات التي تزخر بها.

هذه النصوص والاعترافات وغيرها تشهد أنّ المدرسة المغربية ليست تابعة لأي ثقافة أو أي نخبة، بل هي مدرسة تثرى الساحة العربية والعالمية إبداعاً ونقداً وفكراً، ومع ذلك فهي في حاجة إلى كلّ ما من شأنه أن يشكّل إضافة لها، سواء أكان ذلك من المشرق العربي أم الغرب، كما أنّ مدرسة المشرق في حاجة لها وفق ما يثري مخزونها المعرفي والثقافي، وإذا أسوق هذه الشهادات والاعترافات لا أسمى لأثبت أنّ المدرسة المغربية أفضل من المدرسة المشرقية، بل أهدف إلى استبعاد منطق الاستلحاق، وترسيخ منطق التواصل المثمر بين جناحي الثقافة العربية.

ثانياً. النقد الموجّه للنقاد والمبدعين المشاركة:

يمكن أن أرصد النقد الموجه للنقاد والمبدعين المشاركة من خلال ردّ صلاح بوسريف على المقابلة الصحفية التي أجراها صلاح فضل في صحيفة (العرب)، كما يمكنني أن أستثمر بقية الردود المتلاحقة بعده؛ والمتمثلة في مقال محمد العباس، ومقال وليد محمود الخالص، محاولاً من خلال هذه الخصومة النقدية أن أقف عند أهم نقاط الضعف المسجلة على المنجز النقدي والإبداعي المشرقي، من الوجهة المغربية التي جعلنا ممثلها صلاح بوسريف تجاوزاً، بُغية الوصول إلى الصورة النقدية المثلى، والتي يمكن من خلالها معالجة الأدواء المعرفية التي تعرقل إنشاء نظرية نقدية عربية شاملة، تتمتع بالشمول المتصف بحفظ الاختلافات المشرقية والمغربية، وتحويلها إلى مصادر ثراء وتنوع تنطلق إلى وعي ثقافي واحد ورؤية معرفية مشتركة، وتطور الفعل الإبداعي عن طريق إصلاح الغريال النقدي.

ويمكن تلخيص أهم المآخذ المغربية – من خلال مقال صلاح بوسريف موضوع البحث- على النقد والإبداع المشرقيين في نقطتين اثنتين، هما: **الرجعية، وغلبة الذاتية** واتباع الهوى في العمل النقدي، وسأحاول بيان هاتين النقطتين على هدى المقالات المقصودة بالبحث، وبيان مدى صدقيتهما في الواقع النقدي المشرقي، مُلتمسا من خلال ذلك أفق إصلاح جامع بين المشرق والمغرب.

أ. الرجعية:

تهمة الرجعية هذه هي تهمة وجهها صلاح بوسريف للنقد المشرقي، في سياق ردّه على صلاح فضل في المقابلة الصحفية التي أجراها معه محمد المحامصي في صحيفة (العرب)، وتهمة الرجعية تعني معاداة الحداثة تنظيراً ودعوةً، أو ممارسة وتوجّهاً، وتتجلى هذه التهمة في قول صلاح بوسريف: «... مثلما يَحْدُثُ اليوم عند كثيرين من ذكائِرَةِ المشرق، مِمَّنْ فَاتَهُمْ قِطَارُ المعرفة، أو هُم، بالأحرى، ما زَالُوا لَمْ يَخْرُجُوا مِنْ كَهْفِ أَفْلَاطُونٍ لِيُدرِكُوا الفَرْقَ بَيْنَ الواقع، وبين تِلْكَ الظَّلَالِ التي تَأْكُلُ أَبْصَارَهُمْ وتُعْشِيها، أو تُصَيِّها بالدُّوَارِ، وَلَجَلَجَةِ اللِّسَانِ»⁽³⁰⁾، أي أنّ المشاركة – حسب صلاح بوسريف- بقوا متعبدين في كهف نظرية المحاكاة لأفلاطون في كتاباتهم النقدية، لا يستطيعون تجاوزها إلى انتقالات كبرى حصلت في ميدان الفكر والمعرفة والنقد في الساحة الغربية المعاصرة، والناقد الناجح هو الناقد المحايث؛ أي الناقد الذي لا يبقى أسيرَ نظرةٍ واحدةٍ، وفكرةٍ

واحدة، وتوجّه واحد، ويستطرد **صلاح بوسريف** مخاطباً **صلاح فضل**، ومن خلاله دكاترة المشرق -على حد تعبيره- : « فقراءاً، هي تفاريق، وتقاطيع، لا صلة لها بما حدث من انتقالاتٍ كُبرى، في الفكر، والنقد، والإبداع، وأيضاً في الفن، في المشهد الثقافي المغربي، الذي كما استُفاد من الشَّرْق، في زمن علي عبد الرازق، وحسين المرصفي، وطه حسين، والعقاد... أكتفي بالمصريين فقط، حتّى لا أذهب إلى غيرهم من بلاد الله العربية، استُفاد من أوروبا، ومن أمريكا، وعرّف كيف يهضم طعامه الغنيّ هذا، ويترك منه ما كان فضلةً، في أطرافٍ صُحُونٍ »⁽³¹⁾، يوضّح **صلاح بوسريف** في هذا القول أمرين مهمين يرفعان كلّ لبسٍ قد يخالج المتلقي، هما: إنصاف المشاركة، ومنهج التعامل مع المنجز الأجنبي وفق ما يتناسب مع الخصائص الثقافية للشخصية العربية:

• أما عن إنصاف المشاركة فيتمثل في تمييزه بين فئتين من المشاركة في العصر الحديث: **فئة** برئت من تهمة الرجعية زمن علي عبد الرازق، وحسين المرصفي، وطه حسين، والعقاد ...، وهم من عرف كيف يتعامل مع المعطى الغربي بوعي، وغربة، وثرأ، وفقها وظيفة الغربة، ولا تحدّد هنا واحداً من المذكورين، بل نصف عموم الأسماء المذكورة، وغيرها؛ إذ منهم من اتسعت ثقاب غرباله، ومنهم من ضاقت ثقاب غرباله ...، ولكننا نتكلم عن عموم الفعل النقدي المنفتح، و**فئة** متهمّة بالرجعية، والتحجّر، وهي فئة ارتضت أن تكون من خوالف الفعل النقدي، والمنجز المعرفي العالمي، ويخصّ ذكرنا هنا **صلاح فضل** وأغلب دكاترة المشرق -على حدّ وصف **صلاح بوسريف-**، ودليل تمييزه بين هاتين الفئتين تركيزه على استثناء الفئة الأولى من نقده للمدرسة المشرقية. بدليل قوله: « كان يُمكن قَبُولُهُ من الكبار، مثل طه حسين، هذا الرُّجُلُ الذي، مهما قَسَا في نَقْدِهِ، في ما كَتَبَهُ، وفي ما خاضَهُ من معارك، فهو كانَ صاحبَ مَشْرُوعٍ فِكْرِي ونَقْدِيّ كبيرين وَعَظِيمَيْن، كان لَهُ تأثيرٌ في الأجيال التي جاءت بعده، وَلَمْ يَكُنْ مُدْعِيّاً، أو جَاهِلًا، بما يتكلّم عنه، ولا أَعْي، مثلما يَحْدُثُ اليوم عند كثيرين من ذكّارة المشرق، مِمَّنْ فَاتَتْهُم قِطَارُ المعرفة »⁽³²⁾، إذًا نقد المشاركة ووصفهم بالرجعية، وبالتحجّر، لا يطال أولئك الذين كانوا يتملّكون مشروعا فكريا ونقديا، بل يصدّق فقط على أولئك الذين لا يملكون رؤيةً محايدةً تتأقلم مع جديد الأفكار، وجديد النظريات، وعليه فالشاعر والناقد **صلاح بوسريف** لا يحمل المشاركة في سلة واحدة، بل إنه يميز بين جيلين، وهذا يعدّ إنصافاً من الرجل، كونه ينقد فكرة، ولا ينقد جهة جغرافية معينة، ولا رجالا معيّنين، بل أمضي إلى القول بأن **صلاح بوسريف** وجد ضالّة نقده، وفرصة الإفراج عن رأيه في **صلاح فضل** من خلال مقابله الصحفية المستفزة للمغاربة. غير أنّه يجب التنبّه إلى وجوب تسلّح الناقد العربي بمكنة الغربة الواعية لجهة الأجنبي، ولجهة الموروث الثقافي العربي، ولتجلية هذه النقطة يقول الناقد **محمد مفتاح**: « الناقد العربي، التّائق إلى بناء نقد عربي أصيل ومتقدّم ومنافس، ملزمٌ بأن يقوم بعملية غربة للمنجزات الأجنبية، ولمخلفات التراث العربي، إذ بدون عملية الغربة تلك، فإنه يبقى بلا شك، أسيراً للجهتين »⁽³³⁾.

• أما عن نقطة **منهج التعامل مع المنجز الأجنبي** فتتمثل في قول **صلاح بوسريف**: « ... استُفاد [المشهد الثقافي المغربي] من أوروبا، ومن أمريكا، وعرّف كيف يهضم طعامه الغنيّ هذا، ويترك منه ما كان فضلةً، في أطرافٍ صُحُونٍ »⁽³⁴⁾، قد أحسن **بوسريف** التمثيل؛ إذ الطعام هو مصدر التغذية، تماما كما المنجز الغربي غذاء معرفي وفكري، وكما نأخذ من الطعام ما يفيد أجسادنا ويقوّيها، ونُبقي منه ما يكون غير ملائم، أو ما يمكن أن يسبّب لنا مشاكل هضمية، كذلك يجب أن نتعامل مع المنجز الأجنبي سواءً بسواءٍ، نأخذ منه ما يغذيّنا، ونترك منه ما يُردينا، ولبيان كيفية التعامل مع المعطى الأجنبي، يقول **محمد مفتاح**: « نظن أنّ الوقت قد حان للناقد العربي أن يقف ممحصاً ولكن بموضوعية وتجرد، لكلّ ما يردّ عليه من أنواع المقاربات النقدية الأجنبية، وأن يبتعد عن التقليد الأعمى بُغية التكاثر بالمصطلحات، وقصدا للتطبيق الفج، لذلك، فإن الناقد العربي ملزم بأن يُخضع تلك المقاربات إلى التحليل الاستمولوجي والتأريخي، ومطلوب منه أن يُمارس على واضعها وممارسها ما يُدعى بعلم اجتماعيات المعرفة، إذ ليس من المنطقي والمعقول أن يقبل الناقد العربي كل ما يفد عليه، ويعتبره علما مطلقا لا يأتيه الباطل، مع أنه من وضّع أناسٍ مشروطين بظروف معيشية ومعتقدية »⁽³⁵⁾، ولا يقف **محمد مفتاح** عند الوافد الأجنبي فقط، بل يُوجب على الناقد العربي غربة التراث العربي أيضا، من خلال قوله: « كما نظن أن الوقت قد حان للناقد العربي أيضا، أن يقف الموقف نفسه من مخلفات الأسلاف في البلاغة وفي النقد وفي غيرهما »⁽³⁶⁾؛ أي يتوجّب على الناقد العربي المعاصر ألا يقف موقف المسلم أو المقدّس لأحدهما، وعليه تشغيّل وعيه الثقافي المعاصر وفق نظرة

براغماتية، تأخذ من الشخصية العربية الأصيلة بوصفها ثابتا، وتتعاطى مع المنجز الأجنبي بحذر؛ أي بشكل يُجسّد فيه نقدا عربيا خالصا ومعاصرا، في آن معا.

وما يزيد تثبيت صفة الرجعية والانغلاق على الذات في النقد المشرقي اعتراف صلاح فضل نفسه بهذا، من خلال قوله: « لدينا في تقديري أزمة حقيقية سببها الجامعات المصرية التي توقفت حركة الابتعاث فيها إلى المراكز العلمية الغربية منذ ما يربو على نصف قرن - منذ ستينات القرن الماضي - حيث توقفت البعثات ... فأغلاق باب البعثات في العلوم الإنسانية والأدبية والفكرية والتيارات الفلسفية والنقد على وجه التحديد في الجامعات المصرية أدى إلى سد منافذ التكوين الحقيقي للنقاد الرواد»⁽³⁷⁾، فهذا اعتراف صريح ببُعد المشاركة عن جديد النظريات النقدية في الساحة العالمية، مع في هذا الجديد من غبٍ وسمين، وفي المقابل اعترف صلاح فضل بأسبقية المغاربة في هذا الشأن، كما في قوله: «... باب المغامرة الذي سدّ في وجه النقد العربي المعاصر في مصر والمشرق، سنجد أنه مازال مفتوحا نسبيا في وجه المغاربة . المغرب والجزائر وتونس...»⁽³⁸⁾، ولكن ينبغي ألا يزهو المغاربة بهذا الإقرار؛ إذ فيه من الوطأة ما يحبس الأنفاس، لأنّ هذه الأسبقية على المشرق في تحديث النقد العربي بحديث النقد الغربي أو ما بعد حديثه، تحمّله مسؤولية القيادة في إدراك الاختلاف الثقافي بين العرب والغرب، وإدراك الخطر الداهم على الذات العربية المحافظة، وفي هذا المعرض يقول عبد العزيز حمودة في مقدمة كتابه (الخروج من التيه): «... ترتّب على انهار البعض بالثقافة الغربية إلى حدّ العجز عن إدراك حقيقتين: الاختلاف والخطر. نعم لقد عيى البعض عن الاختلافات الأساسية بين الكثير من المقولات الحداثية وما بعد الحداثية الغربية، المقولات التي أفرزتها حداثا خاصة بواقع حضاري وثقافي غربي، وبين الثقافة العربية ...، أمّا الخطر، وهو الحقيقة الثانية التي لم يلتفت إليها من انهروا بالحدثة الغربية، فقد كان ماثلا بين أعيننا طوال الوقت. ومن اللآفت للنظر أننا لم ننتبه إلى النقل الكامل عن الثقافة الغربية، بعد أن خلطنا بين التحديث والحداثا، كان تمهيدا للتبعية الثقافية وترسيخا لها، ... ذلك على وجه التحديد هو ما كان يخطط له الغرب منذ بدأ نجم اليمين في الصعود ...»⁽³⁹⁾، بحيث وصلت الثقافة الغربية إلى حدّ من الخطر، يمكن وصفه بما نعتّه بها شكري عياد ب(أنسنة الدين): أي إرجاع الدين إلى الإنسان، وفي ذلك يقول: «حتى أمكن أن تفهم العقيدة المسيحية حول صلب المسيح وقيامته فهما أسطوريا، على أنها ترمز إلى تجديد الحياة، أو اقتران الموت بالحياة ... على أنّ هذا التحول الفكري الخطير في الثقافة الغربية لم يقف عند هذا الحدّ، بل اندفع بتأثير التقدم المذهل في العلوم البيولوجية إلى حدّ إرجاع المقدّس والغيبيات إلى جسم الإنسان»⁽⁴⁰⁾، وهذا ممّا يجدر بالمغاربة الحذر منه بوصفهم السبّاقين للمنجز الغربي في النقد المعاصر؛ إذ من المفارقات الغربية للحدائين العرب الوقوع في أحد مفارقتين أو الجمع بين المفارقتين؛ أمّا المفارقة الأولى فتتمثل في: «أنّ التحوّل عن التراث العربي وإنجازات العقل العربي إلى الثقافة الغربية وإنجازات العقل الغربي يعني التسليم صراحةً بإفلاس الثقافة العربية وتخلف العقل العربي»⁽⁴¹⁾، أمّا المفارقة الثانية فتتمثل في: «فشلهم في تقديم بديل مقنع يملأ الفراغ الذي خلقه تحوّلهم»⁽⁴²⁾، ولكن يجب الاستدراك خشية المجبنة من الوافد الجديد (الثقافة الغربية)، والخافة من التجرّ في بوتقة الموروث العربي من البلاغة العربية والنقد العربي القديم، بأن نوّكد على أدّ «ما يأتينا من الغرب ليس خيرا كلّ، فهو أيضا ليس شرّا كلّ، وينطبق الموقف نفسه وبالدرجة نفسها على تراث البلاغة العربية أيضا»⁽⁴³⁾، وهذا ما يدفعنا إلى تأييد وسطية محمد مندور، التي ترفض النقل وتقبل التأثر في وضع معتدل، وفي ذلك يقول: «ونحن في عصرنا الحاضر لن نستطيع أن نجاري التفكير الأوروبي، أو نضيف إليه إضافات حقيقية إذا اكتفينا بنقل هذا التفكير، وذلك لأنّ الفكرة التي تبني على فكرة أخرى لا تلبث أن تنحلّ متعثرة في فتات المنطق، وإنما التفكير الخصب هو الذي نستمدّه من الحياة، ونبنيه على الواقع، وعلى هذا لا يكون لنا، إذا أردنا أن نجدّد حياتنا الروحية، من أن نغيّر اتجاهاتها وقيمها، وهذا لن يكون إلا إذا تغذّينا بالأدب والفنون الأوروبية من تصوير ونحت وموسيقى»⁽⁴⁴⁾.

ب. غلبة الذاتية واتباع الهوى:

تعدّ صفة الذاتية واتباع الهوى في العملية النقدية من أمقّت الصفات التي قد يتّصف بها الناقد، وهي صفة ليست صفة قطرية ولا جهوية، فهي لا تخصّ المشاركة وحدهم، كما لا يبرأ منها المغاربة، وتطال هذه الصفة أيضا نقادا أوروبين، والداعي

لتخصيص المشاركة بهذه الصفة دون المغاربة، هو ما ارتضاه هذا البحث من مدونة أربع مقالات صحفية نشرت شهر جوان من سنة 2016 م، وذلك أنّ صلاح فضل لم يتَّهم المغاربة بهذه الوصمة، لا لبراءة بعضهم منها، ولكنها لم تكن ظاهرة تستدعي التوقّف عنها، أو أنّ المقام لم يسع لذكرها عنده، غير أنّ الشاعر والناقد صلاح بوسريف وصّف أحدَ المشاركة بها، وذكره اسماً وعنواناً وصفةً، كما ذكر المتضرّرين من هذه الصفة الذميمة، ومما يدلّ على وقوف صلاح بوسريف على أرضية يمكن وصفها بالصلابة، أنّ الناقد وليد محمود الخالص الذي جرّد قلمه لتعقّب صلاح بوسريف بشراسة وحدة شديدين، لم يدفع هذا الادعاء، ولم ينفه، وهذا دليل على صدقية هذا الادعاء، ودعوة لتسليط الضوء عليه، أمّا ما نصّ عليه صلاح بوسريف بهذا الصدد فقولُه: «وأودّ هنا، أن أُشير إلى ما كان كتبه صديقك وزير ثقافة مبارك إبان سقوطه، عن الشاعر الرّاجل، الصديق محمد عفيفي مطر، بعد وفاته، وليس في حياته، من نفدٍ لتجربته، التي اعتّبرها تقليدية عتيقة في لغتها وصورها، وكُنْتُ أجبتُ عنه في أحد أعداد جريدة «أخبار الأدب». هذا النوع من النقد الذي هو تضليل، وتزييف، لا يزوم الإضافة، بقدر ما يسعى إلى الإساءة، وتصفية الحسابات القديمة، لا غير. الأمر نفسه فعّله مع الصديق الشاعر عبد المنعم رمضان، الذي كان كتبتُ عنه مقالةً، في جريدة «الحياة» أطرى فيها على تجربته، واعتّبره من الشعراء المهيّئين، وحين وقع بينهما خلافٌ ما، كتبتُ في الجريدة نفسها، جُرّدُه من الشّعريّة، ويعتّبره تابعاً، في ما يكتّبه لأدونيس. هذا هو سلوكُ نقادٍ تجاوزتهم المعرفة، تجاوزهم النصّ الشعريّ الحداثي، وليس الحديث فقط، ففضّلوا الطعن في كلّ شيء، لأنّهم لا يقدّرون في معرفتهم، إلا بما انتهت، وأصبَحَ في عداد المتلاشي الغريب»⁽⁴⁵⁾، ويقصد بالنّاقِد الذي وصفه بصديق صلاح فضل ووزير مبارك إبان سقوطه، جابر عصفور، ودليل ذلك ما ذكره قبل هذه الفقرة؛ حيث يقول: «... إلى جانب الدكتور الآخر، جابر عصفور، وزير ثقافة مبارك والعسكر في مصر ما بعد (الثورة) ...»⁽⁴⁶⁾، هذه تهمةٌ موصوفةٌ ثابتةٌ على جابر عصفور نقدياً، ما لم تُفند بأدلة قاطعة على نحو ما قدّمه صلاح بوسريف، كون تسليط النقد على ميّت (محمد عفيفي مطر) كان بإمكان جابر عصفور نقده في حياته ضرباً من عدم التحلّي بالموضوعية، ونوعٌ من النقد الذي لا يروم الإضافة، بل قد يُوصف بتصفية حساباتٍ قديمة، لا علاقة لها بتطوير الإبداع، أو ترقية العملية النقدية، وتحولٌ دون صناعةٍ منجزٍ نقديٍّ محترم، وكنت أنتظر من وليد محمود الخالص إيجاد أي مبرر يدرأ به هذه التهمة الثقيلة، والتهمة الأثقل تلك التي ضرب لها صلاح بوسريف مثلاً بالشاعر عبد المنعم رمضان، وهو الشاعر الذي طُرئ في مقالٍ لجابر عصفور، وجُرّد من الشّعريّة ووُصِمَ بالتبعية في ما يكتبه لأدونيس في مقال آخر للنّاقِد نفسه، والفاصل بين المقالين وقوع خلاف ما بين الشاعر والنّاقِد - على حدّ ادعاء صلاح بوسريف -، إنّ صدق هذا الادعاء فإنّ النقد تحوّل إلى صفةٍ وتصفيةٍ للحسابات، وليس علماً هدفه تطوير الفعل الإبداعي، بوساطة المرافقة النقدية المُغرِلة.

إذا صدقت دعوى صلاح بوسريف في المثالين المُقدّمين، فقد أحسنَ الحكم في قوله: (هذا هو سلوكُ نقادٍ تجاوزتهم المعرفة، تجاوزهم النصّ الشعريّ الحداثي، وليس الحديث فقط)، الذي ألمعتُ إليه آنفاً، ويصدق هذا الحكم على كلّ من يسلك هذا المسلك في النقد، سواء أكان مشرقياً أم مغاربياً، ولا يمكننا تعميم هذا السلوك النقدي على مدرسة المشرق العربي، فهو وإن ثبت بالدلائل في واحد منهم لا يمكن سحبه على الجميع، وإنما أردت من خلال إبراز هذه النقطة تقديم أهم الانتقادات الموجهة لصلاح فضل، ومن خلاله إلى المدرسة المشرقية، مع ملاحظة عدم ردّ المشاركة علماً، ولا سيما منهم وليد محمود الخالص، وأردتُ التركيز - في هذا الصدد - على ملاحظة مفادها: لعلّ صفة الذاتية واتباع الهوى هي من الصفات اللواحق بالشخصية غير المنفتحة على الآخر، وغير المتصلة بجديد النظريات رفضاً وتعديلاً وقبولاً، الشيء الذي ينجر عنه التقوقع على الذات وإرسال زمام العلوم إلى العاطفة، عن طريق التحجّج بمحذور الخطر القادم من الآخر على الشخصية العربية المحافظة، في هذا الجو تنشأ ذاتية الأحكام واتباع الأهواء، بوساطة سلطة المحافظة أو الإيهام بالحدثة غير الجريئة، ولكنّ كلامي هذا لا أريد أن يُقرأ قراءة لا أقصدها، وهي أنّي لا أدعو إلى الانفتاح المطلق على الجديد الغربي، ولا أعادي الموروث العربي الأصيل، بل هي دعوة إلى الجرأة الحذرة، بحيث تُترك حرية التعامل مع المُعطى الغربي للقادرين على ذلك، والمنهزين به، مع تشغيل جهاز المحافظة التراثية المؤمن بالتحديث ليتعقّب تلك الحرية رفضاً وتعديلاً وقبولاً، حتى يصبح المنهز بالنظريات الغربية قادراً على التمييز بين التسويق المقبول للمنجز الغربي في الساحة الثقافية العربية، وبين التسويق

المنبؤ للمنجز الغربي الغريب عن ثقافتنا العربية الأصيلة، بهذه الشاكلة فقط يمكن دَفْعُ الترائين (المشاركة) إلى إثراء منجزهم النقدي بمواكبة جديد النظريات والمعارف، ويمكنُ كبخُ جماح المنهريين بالثقافة الأجنبية (المغاربة)، عن طريق تعديل جهاز استقبالهم لتلك الثقافة بغربال الهوية وبمعايير الثقافة العربية الأصيلة.

* الخاتمة

لقد حاولت في هذا البحث استثمار الخصومة بين المغاربة الممثلين من خلال مقال المغربي صلاح بوسريف، وبين المشاركة الممثلين من خلال المقابلة الصحفية التي أُجريت لصلاح فضل، ومع مناصرة مشرقية لصلاح فضل بمقال العراقي وليد محمود الخالص، ووسطية مشرقية معتدلة مثلها السعودي محمد العباس، حاولت أن أقف عند الهنات لهذا الطرف وذلك، قصد بيان مواطن الخلل، وتشخيص الداء، حتى أتمكن من توصيف الدواء على هُدي الخصومة القديمة المتجددة، وقد كان المشرق حاضنة المحافظة على التراث الثقافي العربي في طابعه العام، وكان المغرب العربي نافذة التفتّح على الثقافات الأجنبية، وقطب الاستقبال، وعادةً ما يُتهم المحافظ الذي لم يحاول تطعيم تراثه بتحديث من النظريات المعاصرة بالرجعية والجمود، وبهذه التهمة اتهم المشاركة، وعادةً ما يُتهم المنهري بثقافة الآخر، والمتفتح عليها، بالغموض والتحلل من ثوابت شخصيته الأصيلة، وبافتقاره إلى إضاءة المحافظين حتى يُعدّل مساره، وبهذه التهمة اتهم المغاربة، وفي خضم هذه الاتهامات ندرك غنى المشرق العربي بمغربه، وثراء المغرب العربي بمشرقه، إذ كلٌّ منهما مكملٌ للآخر، وعليه فهذه مناسبة سانحةٌ للدعوة إلى الجرأة الحذرة، بحيث تُترك حرية التعامل مع المُعطى الغربي للقادرين على ذلك، والمنهريين به، مع تشغيل جهاز المحافظة التراثية المؤمن بالتحديث ليتعقّب تلك الحرية رفضاً وتعديلاً وقبولاً، حتى يصبح المنهري بالنظريات الغربية قادراً على التمييز بين التسويق المقبول للمنجز الغربي في الساحة الثقافية العربية، وبين التسويق المنبؤ للمنجز الغربي الغريب عن ثقافتنا العربية الأصيلة، بهذه الشاكلة فقط يمكن دَفْعُ الترائين (المشاركة) إلى إثراء منجزهم النقدي بمواكبة جديد النظريات والمعارف، ويمكنُ كبخُ جماح المنهريين بالثقافة الأجنبية (المغاربة)، عن طريق تعديل جهاز استقبالهم لتلك الثقافة بغربال الهوية وبمعايير الثقافة العربية الأصيلة.

الهوامش

(1) صلاح فضل كاتب وناقد مصري معروف في الساحة النقدية العربية المعاصرة، ولد الدكتور صلاح فضل (محمد صلاح الدين)

بقرية شباس الشهداء بوسط الدلتا في 21 مارس عام 1938، تقلّب في مدارس مصر طالبا إلى أن أوفد في بعثة للدراسات العليا بإسبانيا وحصل على دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة مدريد المركزية عام 1972م. انتقل للعمل أستاذاً للنقد الأدبي

والأدب المقارن بكلية الآداب بجامعة عين شمس منذ عام 1979م حتى الآن، وللدكتور صلاح فضل نشاط أكاديمي وثقافي واسع في مصر وخارجها، وله مؤلفات عديدة أثرت المكتبة العربية في الأدب والنقد الأدبي والأدب المقارن، منها: منهج الواقعية

في الإبداع الأدبي 1978م. نظرية البنائية في النقد الأدبي 1978م. تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي 1980م.

سفرات النص، بحوث سيميولوجية 1989م. وغيرها كثير...

(2) صلاح بوسرييف واحد من أبرز شعراء المغرب اليوم، ولد بمدينة الدار البيضاء عام 1958، تقلّب في مدارس المغرب إلى أن

حصل على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، في موضوع (الكتابة في الشعر العربي والمعاصر)، درس إلى جانب الأدب التاريخ القديم في بغداد، شغل منصب رئيس اتحاد الكتاب المغرب فرع الدار البيضاء، له مجموعات شعرية، منها: فاكهة

الليل 1994، على إثر السماء 1998، شجرة النوم 2000 ... ، وكتابات نقدية، منها: رهانات الحداثة أفق لأشكال محتملة 1996، بين الحداثة والتقليد 1999، حداثا الكتابة 2012 ...

(3) ينظر: المقابلة الصحفية في صحيفة (العرب)، نشرت بتاريخ: 2016/05/31، العدد: 10292، ص 15.

(4) ينظر: المقال في صحيفة (القدس العربي)، نشر بتاريخ: 2016/06/10، العدد: 8491، ص 12.

(5) ينظر: المقال في صحيفة (القدس العربي)، نشر بتاريخ: 2016/06/14، العدد: 8495، ص 12.

(6) ينظر: المقال في صحيفة (أثير)، تصدر عن سلطنة عمان (مجلة الكترونية)، نشر المقال بتاريخ: 2016/06/25.

(7) صلاح فضل، الرواية تواصل الانفجار وأزمة الشعر والشعراء، مقابلة صحفية مع محمد المحامصي، صحيفة (العرب)، نشرت

بتاريخ: 2016/05/31، العدد: 10292، ص 15.

(8) نفسه، ص 15.

(9) نفسه، ص 15.

(10) محمد العباس، النقد المغاربي ... الامتيازات إذ تتحول إلى اتهامات، مقال في صحيفة (القدس العربي)، نشر بتاريخ:

2016/06/14، العدد: 8495، ص 12.

(11) وليد محمود الخالص، حين يغمس المثقف قلمه في الخل، مقال في صحيفة (أثير)، تصدر عن سلطنة عمان (مجلة

الالكترونية)، نشر المقال بتاريخ: 2016/06/25.

(12) صلاح بوسرييف، بصد ما قاله الدكتور صلاح فضل عن النقد والإبداع المغاربيين ... الأعمى الذي يقود المبصر، مقال في

صحيفة (القدس العربي)، نشر بتاريخ: 2016/06/10، العدد: 8491، ص 12.

(13) صلاح فضل، الرواية تواصل الانفجار وأزمة الشعر والشعراء، لقاء صحفي مع محمد المحامصي، منشور في صحيفة

(العرب)، بتاريخ: 2016/05/31، العدد: 10292، ص 15.

(14) نفسه، ص 15.

(15) عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص 19.

(16) نفسه، ص 19.

(17) نفسه، ص 15، 16.

(18) حكمت صباغ الخطيب، في معرفة النص: دراسات في النقد الأدبي، دار الآفاق الجديدة، بيروت - لبنان، 1983، ص 13.

(19) صلاح فضل، الرواية تواصل الانفجار وأزمة الشعر والشعراء، لقاء صحفي مع محمد المحامصي، منشور في صحيفة

(العرب)، ص 15.

(20) صلاح بوسرييف، بصد ما قاله الدكتور صلاح فضل عن النقد والإبداع المغاربيين ... الأعمى الذي يقود المبصر، مقال

في

صحيفة (القدس العربي)، ص 12.

(21) وليد محمود الخالص، حين يغمس المثقف قلمه في الخل، مقال في صحيفة (أثير)، تصدر عن سلطنة عمان (مجلة

الالكترونية)، نشر المقال بتاريخ: 25 /06/ 2016 .

(22) محمد العباس، النقد المغاربي ... الامتيازات إذ تتحول إلى اتهامات، مقال في صحيفة (القدس العربي)، ص 12.

(23) نفسه، ص 12.

(24) صلاح بوسريف، بصدد ما قاله الدكتور صلاح فضل عن النقد والإبداع المغاربيين ... الأعمى الذي يقود المبصر، مقال في

صحيفة (القدس العربي)، ص 12.

(25) صلاح فضل ، الرواية تواصل الانفجار وأزمة الشعر والشعراء، لقاء صحفي مع محمد المحامصي، منشور في صحيفة

(العرب) ، ص 15.

(26) محمد العباس، النقد المغاربي ... الامتيازات إذ تتحول إلى اتهامات، مقال في صحيفة (القدس العربي)، ص 12.

(27) نفسه، ص 12.

(28) وليد محمود الخالص، حين يغمس المثقف قلمه في الخل، مقال في صحيفة (أثير)، تصدر عن سلطنة عمان (مجلة

الالكترونية)، نشر المقال بتاريخ: 25 /06/ 2016 .

(29) نفسه، مجلة الكترونية.

(30) صلاح بوسريف، بصدد ما قاله الدكتور صلاح فضل عن النقد والإبداع المغاربيين ... الأعمى الذي يقود المبصر، مقال

في

صحيفة (القدس العربي)، ص 12.

(31) نفسه، ص 12.

(32) نفسه، ص 12.

(33) محمد مفتاح، النص: من القراءة إلى التنظير، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ط1-

2000،

ص 105.

(34) صلاح بوسريف، بصدد ما قاله الدكتور صلاح فضل عن النقد والإبداع المغاربيين ... الأعمى الذي يقود المبصر، مقال في

صحيفة (القدس العربي)، ص 12.

(35) محمد مفتاح، النص: من القراءة إلى التنظير، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ط1-

2000،

ص 105.

(36) نفسه، ص 105.

(37) صلاح فضل ، الرواية تواصل الانفجار وأزمة الشعر والشعراء، لقاء صحفي مع محمد المحامصي، منشور في صحيفة

(العرب) ، ص 15.

(38) نفسه، ص 15.

(39) عبد العزيز حمودة، الخروج من التيه: دراسة في سلطة النص، سلسلة عالم المعرفة، مطابع السياسة، الكويت، نوفمبر

2003،

ص 08، 09.

(40) شكري عياد، المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب، سلسلة المعرفة، الكويت، 1993 ، ص 66، 67.

(41) عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة: نحو نظرية نقدية عربية ، سلسلة عالم المعرفة، مطابع الوطن، الكويت، نوفمبر

2001،

ص 487.

⁽⁴²⁾ نفسه، ص 487.

⁽⁴³⁾ عبد العزيز حمودة، الخروج من النتيه: دراسة في سلطة النص، ص 08.

⁽⁴⁴⁾ محمد مندور، في الميزان الجديد، دار نهضة مصر، الفجالة - القاهرة، (د.ط) (د.ت)، ص 63.

⁽⁴⁵⁾ صلاح بوسريف، بصدد ما قاله الدكتور صلاح فضل عن النقد والإبداع المغاربة... الأعمى الذي يقود المبصر، مقال

في

صحيفة (القدس العربي)، ص 12.

⁽⁴⁶⁾ نفسه، ص 12.

fac-lettres@univ-eloued.dz